﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ [آل عمران: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُنَاسَبَةِ الآيةِ لِمَا قبلَهَا وجهانِ:

أحدهما: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ عدمَ قبولِ التَّوبة ممَّن كَفَر بعدَ إيمانِه، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ تشوَّف السَّامعُ إلى مآلهم في الآخرةِ، فقالَ سبحانَهُ مبيِّنًا لَهُمْ أنَّ سببَ عدمِ قبولِ تَوْبَتِهم هو تفويتُ محلِّهَا بإيغالِهم في الْكُفْرِ وتمادِيهم عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾[1].

والآخَرُ: أنَّ الكفَّارَ ثلاثةُ أقسامٍ:

أوَّلُهَا: مَن يَتُوبُ عَنِ الكُفْرِ توبةً صحيحةً مقبولةً، وقد ذَكَرَهُ اللهُ تعَالَى في قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثَانِيهَا: مَن يتُوبُ عَنِ الْكُفْرِ تَوْبَةً فاسدةً غيرَ مُسْتَوْفِيَةٍ الشُّروطَ، وهو الَّذي ذكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾. ثالثُهَا: مَن يَمُوتُ على الكُفْرِ من غَيْرِ توبةٍ أصلًا، وهو المذكُورُ في هذهِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾.

فلمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيَتَيْنِ المتقدِّمتَيْنِ الصِّنفَيْنِ الأوَّلَيْنِ؛ تَمَّمَ القسمةَ في هذه الآية بذِكْرِ الصِّنْفِ الثَّالثِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّلۡءُ﴾: الْمِيمُ واللَّامُ والهمزةُ: تدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ في ظَرْفٍ حتَّى لا يَبْقَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479 - 480.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.

في الظَّرف فراغٌ[1]، وَمِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أي: مِقْدَارُ مَا يَمْلَؤُهَا مِنَ الذَّهَبِ[2].

2) ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾: الفاءُ والدَّالُ والياءُ: تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِهَا على جَعْلِ شَيْءٍ مكانَ شيءٍ آخرَ حمايةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهم: فَدَيْتُهُ، أي: حَمَيْتُهُ بنفسي أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عَنْهُ[3]، وَافْتَدَى بمعنى: بَذَلَ ذَلِكَ عَن نَفْسِهِ، ومِنْهُ الفديةُ في الشَّرعِ: وهي مَا يَقِي بِهِ الْإِنْسَانُ نفسَه مِن مالٍ يَبْذُلُهُ في عبادةٍ قصَّر فيها[4]، وأصلُ الفِديةِ: بَذْلُ شَيْءٍ احترَاسًا مِن أذًى، ومِنْهُ: فِدَاءُ الأسير[5].

وقولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾، أي: جعلَ مِلْءَ الأرضِ ذَهَبًا فِدْيةً لهُ للنَّجاة مِنَ النَّار.

3) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النُّون والصَّاد والرَّاء: تدُورُ تَصَاريفُها على إِتْيَانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ومِنْهُ: نَصْرُ اللهِ تعالى لِلْمُسْلِمِينَ: وهو إيتاؤُهم الظَّفَرَ على عدوِّهم[6]، والنُّصْرَةُ: حُسْنُ المعونة[7]، وتأتي بِمَعْنَى: التَّنْجِيَةِ والتَّخليص[8]، والنَّاصرُ: المُعِينُ.

ومعنَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ما لَهُمْ مِن مُخلِّصينَ مُنْقِذِينَ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الَّذين كَفَرُوا، وجَحَدُوا نبوَّةَ محمّدٍ ﷺ وماتُوا على الكُفْرِ باللهِ تَعَالَى ورَسُولِهِ ﷺ فلن يُقبَل في الآخرة - مِمَّن كانَتْ هذه صِفتَه - جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على تَرْكِ عقُوبَتِهِ على كُفْرِه، ولا جُعْلٌ على العفوِ عَنْهُ، ولَو كان لَهُ مِنَ الذَّهب قَدْرُ ما يَمْلَأُ الأرضَ مِن مَشْرِقِهَا إلى مَغْرِبِهَا، أولئكَ لَهُم عذابٌ مُوجِعٌ، وما لَهُم مِن أحدٍ يُنْجيهِمْ مِن عَذَابِ اللهِ تَعَالَى[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ملأ).
(2) الهرويّ، الغريبين: (ملأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فدي).
(4) الرَّاغب، المفردات: (فدى).
(5) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/708.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(7) الخليل، العيْن: (نصر).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 6/584 - 585. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الاِسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِظْهَارِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

في فَصْل قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ عمَّا قبلَهُ وجهانِ[1]:

أحدهما: أنْ يكونَ بينَهُما شِبْهُ كَمال الاتِّصالِ، وهو المعروفُ بالاِسْتِئْنَافِ البيانيِّ، وذلك أنَّه لَمَّا ذُكِرَ حُكْمُ فريقٍ مِنَ الكفَّار الَّذين يتُوبُونَ توبةً صحيحةً، ثُمَّ أُعْقِبَ بذِكْرِ طائفةٍ تابُوا توبةً فاسدةً؛ بعثَ ذلكَ في نفسِ المتَلَقِّي سؤالًا، وهو: مَا حُكْمُ مَن لم يَتُبْ مِنْهُم حتَّى ماتَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾.

والآخَرُ: أنْ يكون بينَهما كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على أنَّ المرادَ به: الكُفَّارُ الَّذين ماتُوا على الكُفْرِ، فيكون قولهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ بمنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفْظِيِّ للآيةِ قبلَهَا، وإنَّما أُعيدَت ليُبْنَى عَلَيْهَا قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْكُفْرِ مُطْلَقًا

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾؛ إيماءً إلى نَوْعِ الخبرِ المحكومِ به على المسنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّه مِن جِنْسِ الإهانَةِ والعقوبةِ، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم الجزاءَ المذكورَ في قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾، وأنَّ هذه العقوبةَ مُسَبَّبَةٌ عَنْ كُفْرِهم وموتِهم على ذلك.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.

وفي هذا تَحْذِيرٌ مِنَ التَّلبُّسِ بالْكُفْرِ مطلقًا؛ خشيةَ أن يُخْتَمَ لِلْعبْدِ بهِ، إِذْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفَاجِئُهُ أجلُهُ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

اللَّامُ في الاسْمِ الْمَوْصُول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يُرادُ بها الْجِنْسُ المفيدُ العُمومَ[1]، فهي شَامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ، ومات علَى الْكُفْرِ مِنْ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ: يَهُودِهَا ونَصَارَاها ومَجُوسِها وغيرِهم[2].

مَـنْ مَـاتَ عَـلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْـلِ الـنَّـارِ، أَيًّـا كَانَتْ مِلَّتُهُ

بَلَاغَةُ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

ذَكَرَ اللّه تعالى في قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلى قولِهِ سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أقسامَ الكُفَّارِ مُسْتَوْفَاةً[3]، وذلكَ أنَّ القسمةَ العقليَّةَ تقتضِي أنَّ الكفَّار باعتبارِ التَّوبةِ قِسْمَانِ:

الْكُفَّارُ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّوْبَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ لَا رَابِعَ لَهَا

أحدهما: مَن لا تَصْدُرُ مِنْهُ توبةٌ أصلًا، وهذا هُوَ المَذْكُورُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

والآخَرُ: مَنْ تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبةٌ، وهذا الْقِسْمُ صِنْفَانِ:

الأوَّلُ: مَنْ تكُونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً، وهو المذكُورُ في قولِه ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآخرُ: مَن تَكُونُ توبتُهُ فاسدةً غيرَ مقبُولةٍ، وهو المذكورُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

فاستوعَبتِ الآياتُ أقسامَ الكُفَّارِ كُلَّهَا، وهذا الأسلوبُ هو المعرُوفُ بالتَّقسيمِ؛ إِذْ حقيقَتُهُ: استِيفَاءُ أقسَامِ الشَّيءِ بالذِّكْرِ[4]، ونُكتتُهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/584.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(4) الصَّعيديّ، بُغية الإيضاح: 4/608.

ههنا: التَّرغيبُ في التَّوبةِ النَّصوحِ، والتَّرهيب مِنَ التَّوبةِ الكاذبةِ الفاسدةِ أو الاسْتِمْرَارِ فِي الْكُفْرِ مِن غَيْرِ توبةٍ أصلًا.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْحَالِ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جُمْلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

دِقَّــةُ التَّـعْـبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ الْأَسَالِيبِ

وردَتِ الحالُ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جملةً، ولم تَرِدْ مفردةً بأن يُقال: (وماتوا كُفَّارًا)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الكفرَ حالُهم المستقِرَّةُ قبلَ الموتِ[1]، بخلاف ما لَوْ قِيل: (وماتوا كُفَّارًا)؛ فإنَّه يحتَمِلُ أنَّه حصلَ مِنْهُمْ إيمانٌ مَا، إلَّا أنَّهُ عِنْدَمَا جاءَهُم الموتُ رآهم كُفَّارًا، فكان العُدُولُ عَنِ الحالِ المفردةِ - مع أنَّها أخصَرُ - إلى الحالِ الواقعةِ جملةً؛ لِلْإِشْعَارِ بِهَذَا المعنى المتقدِّمِ، وهو أنَّهم غَارِقُونَ في الكفرِ، مستمرُّون فِيهِ، حتَّى صارَ طَبْعًا لَهُمْ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾:

عَــدَمَ قَـبُـولِ الْـفِـدْيَـةِ مِـمَّـنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ مَقْطُوعٌ بِهِ

الفاءُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ مشعرةٌ بأنَّ الكلامَ مبنِيٌّ على الشَّرط والجزاءِ، وأنَّ عَدَمَ قَبُولِ الْفِدْيةِ مُعَلَّلٌ بالموتِ علَى الْكُفْرِ[2].

ودخَلَتِ الفاءُ ههنا دُونَ قولِهِ قبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ للإيماءِ بقوَّة السَّبَبِيَّةِ، وظهورِهَا في الآية الثَّانيةِ دونَ الأولى[3]، ووجهُ ذلك: "أنَّ المرتدَّ قَد يُرْجَى مِنْهُ الرُّجوعُ إِلَى الإيمانِ، فَلَا يترَتَّب عليهِ عَدَمُ قبولِ التَّوبة، بخلافِ الْمَائِتِ على الكُفْرِ؛ فإنَّ عدمَ قَبُولِ الفِدْيةِ مُتَرَتِّبٌ على المَوْتِ حالةَ الكفرِ لا مَحَالةَ"[4].

(1) فاضل السَّامرّائي، معاني النحو: 2/303، 306.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/175.

دِلَالَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾:

شَنَاعَةُ الِاجْتِرَاءِ عَلَى الْكُفْرِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُقْبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ لِلْعِلْمِ بِهِ، وهو اللهُ ﷻ، وللإيماء إلى ذمِّهم وتحقيرهم بسبب شناعةِ فِعْلِهم الَّذي هو الجراءَةُ على الكُفْرِ، ثُمَّ الاستمرارُ عليه حتَّى الموتِ[1].

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

قُوَّةُ الِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ أسلوبُ البَحْثِ - وهو الذي يُسمِّيه طائفةٌ مِنَ البلاغيِّين بالمذهب الكلاميِّ - وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ في قوَّة المقدِّمتَيْنِ والنَّتيجةِ لَهُما، فكأنَّه قال: الَّذين كفروا بعد إيمانهم، ثُمَّ ازدادوا كفرًا يموتُونَ كفَّارًا، وكلُّ مَن كفرَ، ومَاتَ كافرًا؛ لَنْ تُقْبَل منه الفِدْيَةُ مطلقًا ولو بِمِلْءِ الأرض ذهبًا[2].

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾:

الْكُفَّارُ آيِسُونَ مِنْ تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

نفيُ قَبُول الافتداءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لا يقتضي أنَّ الكافرَ يَمْلِك يومَ القيامةِ ما يفتدِي به؛ إذْ هُوَ لا يَمْلِكُ فِيهِ شيئًا، وإنَّما الآيةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الفَرْضِ والتَّقدير، فذِكْرُ الذَّهبِ كنايةٌ عَنْ أعزِّ الأشياءِ وأثمَنِهَا وأنْفَسِهَا[3]، وكونُهُ مِلْءَ الأرضِ كِنَايةٌ عَنِ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ، فمعنى الآيةِ: لو أنَّ الكافرَ قَدِرَ على أنفسِ الأشياءِ بالغًا بِهَا في الْكَثْرَةِ غايَتَهَا، وقدِرَ على بذلِهِ؛ فإنَّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/480.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/178.

لا يُمْكِنُهُ بذلك أن يُخَلِّص نفسَهُ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ تعالى، فهو كِنَايَةٌ عَن كَوْنِهم آيِسِينَ من تَخْلِيصِ أَنْفُسِهم من عِقَابِ اللّٰه تعالى وعَذَابِه[1].

دِلَالَةُ ﴿وَلَوِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾:

﴿وَلَوِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾ تُومِئُ إلى أنَّ ما قبلهَا واردٌ على وجهِ الاستِقْصَاءِ، وأنَّ ما بعدها جيءَ به تنصيصًا على حالٍ قد يُظَنُّ عَدَمُ اندراجِهَا فيما قبلهَا، وهذا كَقَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، فإنَّ وجودَ الخصاصة مظنَّةٌ لتَرْكِ الإيثارِ، فنُصَّ عليها لِلْإِعْلَامِ بأنَّ إيثارَهُم عامٌّ في جميع الأحوَالِ، وكذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾، فإنَّه لمَّا كان قَبُول الفديةِ واجبًا عندَ أهلِ الكتاب؛ قد يُظَنُّ أنَّ بذلَ واحدٍ مِنْهُمْ ملءَ الأرض ذهبًا على جهةِ الافتداءِ مخالفٌ لبذْلِهِ ذلكَ على غير سبيلِ الافتداءِ، فنَصَّ عليه بقَوْلِه: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦ﴾، والمعنى: لا يُقْبَلُ من أَحَدِهم مَا يَمْلَأُ الأرضَ ذهبًا على أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، ولَوْ عَلَى حالِ الافْتِدَاءِ[2].

نَفْيُ قَبُولِ الْفِدَاءِ نَفْيًا عَامًّا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قولَه سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أوْرَثَ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ، وهو أنَّه إذَا كَانَ لا يُقبَلُ مِنْهُم فِدَاءٌ مُطْلَقًا، فمَا الَّذي يحِلُّ بِهِمْ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

عَـــدَمُ قَـبُـولِ الْفِدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ يَسْتَلْزِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

نُكْتَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإشارَةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِ اللّٰهِ سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى المذكورِينَ قَبْلُ باعتبارِ اتِّصافهم بالأوصافِ الشَّنيعةِ

الْـكُـفْـرُ بِـاللّٰـهِ تَـعَـالَى أَعْـظَـمُ أَسْبَابِ الْعَذَابِ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.

المذكورةِ، وفيهِ إيذَانٌ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هِيَ سببُ حُلُول العذابِ الأليمِ بهم[1].

وفي التَّعْبِير باسم الإشارة الدَّالِّ على البُعْدِ: إعلامٌ بانْحِطَاطِ منزلَتِهم وبُعْدِهم مِن رَحْمَةِ اللّه تعالى[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

شِدَّةُ الْعَذَابِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله سُبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإرادةِ القصرِ، وفيه: قصرُ العذابِ الأليم على المَذْكُورِينَ، وَهُوَ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا ادِّعائيًّا، ونكتَتُهُ: الإيماءُ إلى شدَّةِ هذا العذابِ الَّذي يُلاقُونَهُ، حتَّى كأنَّ العذابَ الذي ينالُ غيرَهُم ليس بِشَيْءٍ بالنِّسبةِ إلى مَا يلاقُونَه هُمْ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَيْئِيسُ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّه لا يُقبل ممَّن ماتَ على الكفر فديةٌ مطلقًا، قد يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّمَا عُفِيَ عنه تكرُّمًا وتفضُّلًا، فدُفِعَ هذا الوَهمُ بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي هذه الجملة أيضًا: مبالغةٌ في التَّحذيرِ من سلوكِ مسلَكِ الكُفْرِ[3].

وفي العدُولِ مِن صيغةِ (مُفْعِلٍ) إلى (فعيل) في قولهِ تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ إشعارٌ بشدَّةِ هذا العذاب، وذلك لِمَا في صيغة (فَعيل) مِنَ المبالغة[4].

وتنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ دالٌّ على عَظَمَتِهِ وفخامَتِهِ.

دِلَالَةُ ﴿مِّن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

نَفْيُ كُلِّ وُجُوهِ الِاسْتِنْقَاذِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُرادُ بهَا التَّنصيصُ على العمومِ، وذلك أنَّ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْيِ، وهي دالَّةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/211.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/259.

على العموم دِلالةً ظاهرةً، وذِكْرُ ﴿مِنْ﴾ قبلَها يَنقلُ الدِّلالةَ من كونِهَا ظاهرةً في العموم إلى كونِهَا نصًّا فيه، والنُّكتةُ في ذلك: الإغراقُ في نفي النَّاصرينَ، فيكون قَدِ انتفَى عنهم كلُّ وجهٍ مِنْ وُجُوهِ الاسْتِنْقَاذِ[1].

دِلَالَةُ جَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

لَا نَجَاةَ لِلْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لِجَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ نكاتٌ:

إحداها: المبالغةُ في نفي نجاتِهِمْ، ولو اجتمَعَ في مُزاولةِ ذلك جماعاتٌ كثيرَةٌ.

وثانيها: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهُمْ لا ناصرَ له؛ لأنَّ (هُمْ) ضميرُ جمعٍ، وقابلَهُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ وهو جمعٌ، والقاعدة: أنَّ مقابلةَ الجَمْعِ بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، والمعنى: كلُّ واحدٍ لا ناصرَ له[2].

وثالثها: مراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوتِيِّ لفواصلِ الآي[3]؛ فإنَّ الإفرادَ ههنا لو كانَ (وَمَا لَهُم مِن ناصرٍ) يُذهِبُ برَونَقِ التِّلاوَةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَاصِرُونَ وأَنْصَارٌ:

وردَ هذانِ الجمعانِ في مواضعَ مِنَ القرآن الكريم، والفرقُ بينَهما:

أنَّ صيغةَ (أنصار) جمعٌ لـ (نصير)، كشريفٍ وأشرافٍ، فـ (أنصار) جمعٌ لصيغةِ المبالغةِ المُفيدةِ ثبوتَ الصِّفةِ لِلْمَوْصُوف معَ المبالغةِ فيها؛ ولذا أُطْلِقَ على أهلِ المدينة النَّبويَّةِ الَّذين نصَروا رسولَ الله ﷺ.

وأمَّا صيغةُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾؛ فجمعُ (نَاصِر)، وهو اسمُ فاعلٍ دالٌّ على إثباتِ الصِّفة لِلْمَوْصُوفِ من غيرِ دلالَةٍ على المُبَالغةِ فيها؛ ولذا جاءَ في أكثر مواضعِهِ لنفي النُّصرةِ عنِ الظَّلَمَةِ، فنُفِيَ عنهم النَّصْرُ المجرَّدُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481. وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 5/385. والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/282.
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 497.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»